(سعاد) و(الناقة) في بردة كعب بن زهير بين الواقع والأسطورة . قراءة في الأبعاد الحضاريّة للنّص .

أ . عبد الله بلحاج*

كعب بن زهير بن أبي سلمى[1] بن ربيعة بن رباح ، شاعر عالي الطبقة من أهل نجد . ظهرت شاعريته في وقت مبكّر ولا غرو في ذلك ، فهو ينتمي إلى بيت من بيوتات الشعر التي تألّفت في الجاهليّة ، فقد ورث الشعر من طرفي أبيه وأمّه ، وورثه من بعده أبناؤه وأحفاده ، فيقال إن ابنه المضرب كان شاعرا واسمه عقبة بن كعب ؛ لقب بالمضرب لأنّه شبب بامرأة فضربه أخوها بالسيف ضربات كثيرة فلم يمت ، وكذلك حفيده العوام بن عقبة بن كعب كان شاعرا أيضا . وله أخ شاعر مفلق معروف هو بجير ، وله أخت اسمها سلمى وهي شاعرة أيضا وله أخوة آخرون ، وقد شب كعب بينهم شاعرا حتّى أدركوا الإسلام فأسلم الأخوة جميعا إلا كعبا . ولما فتح رسول الله ﷺ مكّة كتب بجير بن زهير إلى أخيه كعب يخبره أنّ رسول الله ﷺ قد قتل رجالا بمكة ممّن كانوا يهجونه ويؤذونه . فإن كان لك في نفسك حاجة فاقبل إلى رسول الله ﷺ ، فإنّه لا يقتل أحدا جاءه تائبا . فلمّا بلغ ذلك كعبا ضاقت عليه الأرض ، وأشفق على نفسه فلمّا لم يجد من شيء بدا ، حتى قدم إلى رسول الله ، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه ، فقال يا رسول الله إنّ كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك تائبا مسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال الرسول (ﷺ) : نعم ، قال أنا كعب بن زهير . ثم أنشد لاميّته المشهورة في مدح الرسول والمسلمين ، ولما فرغ منها جلّله الرسول (ﷺ) ببردته ، ومن هنا عرفت القصيدة بالبردة . تتكون قصيدة كعب من أربع وحدات هي : الغزل ، ووصف الراحلة ، ومدح الرسول ، والاعتذار . فأمّا المدح والاعتذار فلا يقبلان التأويل بغير ما صرح به الشاعر ، فالغرض الأساس من القصيدة قائم عليهما وأمّا الغزل ووصف الراحلة ففيهما للدارسين قراءات كثيرة ونظرات متعددة على مرّ العصور .

---

* جامعة السابع من أبريل ، زلطن ، ليبيا .

إن النظرة العجلى لمستهلّ بردة كعب بن زهير (بانت سعاد) لتدعو كلّ من تهيأت له معرفة قصّة نظمها إلى التساؤل ، لماذا سعاد ؟ أهي حقًا فتاة سامرت جنان الشاعر وسلبت لبّه إلى درجة لم يستطع معها الانفكاك عنها حتى في لحظات اصطراعه مع الموت ؟ أم أنّها ترميز وأسطورة لمدلول مستقر في ذهن الشاعر إبّان تلك اللّحظات العصيبة ؟ ثمّ إنّ تساؤل القارئ لا يقف عند الطلسم (سعاد) ، بل إنّ ذهنه ليشغل من جديد مع استرساله في قراءة أبيات البردة التي تنقله إلى أسطورة جديدة هي (الناقة) ؛ أهي حقًّا راحلته التي امتطاها في رحلته الشاقّة إلى المدينة كي يعلن إسلامه بحضرة الرسول أم أنّها رمز لمدلول مستقرّ في ذهنه لا يقلّ شأنا لديه عن مدلول الرمز (سعاد) ؟ .

سعاد أم الحياة

لقد أطبق كثير من النقاد القدماء على فهم الأبيات من (1 ـ 14) من البردة على أنها مقدمة غزلية يمكن النظر إليها على أنها عمل متكامل رائع جار مع التقليد الأدبي في مذهبه البدوي بافتتاح القصائد عبر الوقوف على أطلال الحبيبة ومخاطبتها والحنين إليها ووصف جمالها ، وهي بمنزلة تمهيد لما تهدف إليه القصيدة من مقاصد وغايات ، ومقدمة كعب هذه تصف ـ عندهم ـ بينونة الحبيبة سعاد وأثر ذلك الفراق العميق في نفس الشاعر ، فما كان منه إلا أن يمضي أيامه يستحضر صورتها ويئن إلى لقياها ولثم رضابها العذب [2] . ومنهم من رأى أن (سعاد) هذه فتاة غير حقيقية وإنما هي عرف دأب عليه الشعراء في مفتتح قصائدهم ولم يحد كعب بن زهير عن هذا العرف وهو يمدح الرسول (ﷺ) ، يقول د . محمد بن سعد بن حسين في كتابه « المدائح النبوية بين المعتدلين والغلاة « : « ولم يستحسن البعض بدء كعب قصيدته بالغزل ، وهو يمدح أشرف الخلق وخاتم المرسلين ، غير أن تلك عادة العرب فهم يبدأون قصيدهم بالنسيب في أيّ مقام كان ، فهو منهج لا غبار عليه « . ثم يقول : « على أن بعضاً من شيوخنا فسّروا ذلك وبيّنوه على وجه من الرمز والإشارة . فمن ذلك ما ذكره أستاذنا د . عبد السلام سرحان في كتابه « مختارات من روائع الأدب» ، حيث قال : وسعاد هذه فتاة خيالية اخترعها خياله وفراها تصوّره ليبدأ على حبّها إنشاده ويوالي في ذكرها إنشاده ، ويرتع في مرابعها بخير تقديم على عادة الشعراء في شعرهم القديم . ولكن الملاحظ أنه وصفها

بعدم الولاء ورماها بعدم الوفاء وتحدّث عن أنها هجرته وقطعت حبل وصله ، وأبلت أسباب ودّه ، واختفت عنه في مكان بعيد لا يمكن الوصول إليه إلا على ظهور العتاق النجيبات المسرعات في السير المغذّات في الرحيل ... ثم انتقل إلى وصف أمله في رسول الله ﷺ أن يعفو عنه ويغفر له زلته ويؤمنه على سعاد التي كنّى بها ـ فيما أرى ـ عن راحته وهناءته التي افتقدها زمناً طويلاً فكانت تهرب منه ، وتفرّ أمامه ، وتبعد عنه ، فيحاول أن يركب إليها سفائن الصحراء حتى وجدها أخيراً في طريق الأمل والرجاء وعرف أنها تقيم لدى سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه» . ويختم د . محمد بن سعد تعليقه على قول أستاذه بالقول : « وهذا رأي جديد وهو عندي حريّ بالتقديم والتقدير ، إذ أنه ينزع بمطلع القصيدة عن التغزّل في موقف ومقام يجب أن ينزها عن مثل هذا »[3]

لقد انجلت ـ بعد التي واللتين ـ من لباب الدارسين المحدثين الذين عنوا بالبردة وكعبها صورة سعاد الفتاة حقيقية كانت أم خيالية لسبب واحد وكفى به حجة وهو أن الشاعر ليس في موقف الغزل الصريح بكل ما اضطم عليه هذا الغرض من وصف مفاتن الحبيبة والشوق إلى اللقاء بها ولوعة فراقها وترك الأحبة والأهلين أملا بالظفر بها والوقوف على الديار التي أمست وباتت فيها . لقد كان كعب بن زهير وبكل إيجاز أما أن يموت من يومه أو يدفع عنه الموت ردحا من الزمن بلسانه الذي رمى به في مهاوي الردى والمنية من قبل . إنها إذن مسألة حياة أو موت فناء أو بقاء وتلك لحظة تتوقف عندها كل نواميس البشر وتطرح معها كل رغبات النفس وتهون إزاءها الأماني وتلفظ أمامها اللذات . ولا شك أن مطلع القصيدة ومحورها يحملان موضوعاً ينأى عن التشبيب والغزل ل ، الموقف لا يسمح بذلك مهما كانت عادة الشعراء العرب من افتتاح قصائدهم . فهذا موقف جديد لم يعرفه شعراء العرب ، خارج عن عادتهم التي ألفوها . وهو موقف أجلّ من كلّ موقف عرفه شاعر قبل ذلك . وكان كعب ابن زهير يدرك ذلك حقَّ الإدراك ، ويُدرك أنّ عليه أن يتخيّر أطيب أسلوب يخاطب به النبوة الخاتمة ، وأطهر كلمة يقولها بين يدي الرسول ﷺ . فلا يعقل أن يبتدئ إيمانه بعظمة الإسلام بالتشبيب بفتاة حقيقية أو خيالية . ولو كان مطلع القصيدة يشير إلى غزل حقيقي في فتاة حقيقية لنهاه رسول الله صلى الله ﷺ عن ذلك ولا ريب . فمن ذا الذي يجرؤ أن يعرض حبّه وغزله وتشبيبه على رسول الله ﷺ وهو في موقف التائب العائذ بالرسول . ولا

يتصور أيضا أن كعباً ذكر في مطلع قصيدته فتاة غير حقيقية ، اخترعها خياله ليتغزّل بها جرياً على عادة أو اتباعاً لقاعدة لأن تلك لم تكن عرفا جاريا وعادة مسلم بها في الشعر العربي قبل الإسلام ، وكان أمام كعب أساليب أخرى يتخيّر منها أطيبها وأطهرها . فضلا عن أنّ الخطر الذي يتهدّده ، كان كافياً ليبعد عن قلبه النساء والغزل والتشبيب وهماً أو خيالاً أو حقيقة . فلا بدّ ـ إذن ـ أن يختار كعب أسلوباً يناسب إيمانه الجديد ويناسب مقام النبوة وعظمة رسالة الإسلام وأنّى للغزل والتشبيب والنسيب أن يلائم ذلك .

ولذا مضى الدارسون يجتهدون في فك طلسم (سعاد) والاهتداء إلى مدلول هذا الرمز ، فطرح د . عبد الجبار المطلبي على طاولة البحث فكرة المشركين فقال : « إن بينونة سعاد في قوله « بانت سعاد » تشير إلى بينونة المشركين أو قل بينونته ، أي انفصاله عنهم ، أولئك الذين اختارهم من قبل وكان في معسكرهم ومكث فيهم . وسعاد هذه ـ وهي ترمز إلى المشركين ـ على جمالها ليس وراء حبها طائل فلا يصدق وعدها ولا تقبل النصح من غيرها وهي خليلة خلط الفجع بدمها في المصائب والكذب في القول وإخلاف الوعد وتبديل خليل بآخر وهي فوق ذلك لا تدوم على حال وليست مواعيدها إلا الأباطيل . وتلك صفات ظاهرها يتصل بالحبيبة الجميلة وباطنها نقد عنيف لوعود المشركين بالنصر وأباطيلهم في ذلك »(4) .

وهذه فكرة مع جرأتها لا نجد ما يعضدها بين ثنايا القصيدة بمعناها العام بل على العكس نجد ما ينقضها ذلك أن الشاعر قد رمز لجماعة الذكور ورؤوس القوم ـ المشركين ـ بالمفرد المؤنث ـ سعاد ـ وهذا يجعل الملمح الدلالي ما بينهما بعيدا . ثم إن الشاعر إن رام هذه الإشارة الدلالية وهو بحضرة الرسول (ص) فقد بالغ في بيان تعلقه بالمشركين وهيفه بهم وإعجابه بما عندهم وشوقه إلى اللحاق بهم راكبا النوق النجيبات المراسيل بغية بلوغ مضاربهم ، فلا يعقل أن يرى كعب ـ المزهو بإسلامه حديثا ـ المشركين كـ (أغن غضيض الطرف مكحول) و(منهل بالراح معلول) و(ماء معنية صاف) وغير هذا على وفق ما يلحظ في الأبيات من (2 ـ 7) .

ويطرح قارئ آخر فكرة الجاهلية وهو يفسر الأسطورة (سعاد) فيرى

أن سعاد تمثل رمزاً إلى «الجاهلية «فهي السعادة للشاعر ، وهي تتميز ببهاء مظهرها وسوء مخبرها ، وإنَّ الشاعر على الرغم من كونه عازماً على القدوم إلى الرسول ، فإنه لا يزال ينظر إلى الجاهلية التي لا يمكن بلوغها أو الوصول لها تعبيراً عن التغير الذي يحدث في الواقع . وكان لا بد إذن من رحلة ينأى بها الشاعر عن هذه «الجاهلية» الباهرة الجمال الرديئة الأخلاق ولقد كان كعب شاعراً جاهلياً . وكانت الجاهلية بكلّ أعرافها وأفكارها ملكت عليه نفسه ، حتى ظنّ أنها هي الحق وهي التي تستحق الحبّ والولاء . ولقد بلغ من ذلك من نفسه حدّاً دفعه إلى أن يرتكب الإثم العظيم الذي لا يصدر إلا عن كافر محارب لله ولرسوله ، حين هجا رسول الله ﷺ هجاءً أعلن فيه رفضه للإسلام وتمسّكه بجاهليته ودنياه وأهوائه ونزواته ، وما ورثه عن آبائه من هذه الجاهلية . لقد كان هذا هو حبّه الأول الذي ملك عليه نفسه ، وحدّد على أساسه موقفه ورأيه وكلمته [5] . ما يقال في رد فكرة تفسير سعاد بالمشركين ، يقال أيضا في تفسيرها بالجاهلية بل ربما كانت الفكرة اللاحقة مستوحاة من الأولى دون تنويه.

إن فكرة تفسير البردة بالبردة أمر يكشف النقاب عما خفي عن مدارك القراء سواء عمد الشاعر إلى ذلك الغموض أم جاء منه ذلك من دون قصد . ولذا يبدو استشفاف فكرة الحياة من الرمز (سعاد) أمرا ملائما للأحداث التي ساقها الشاعر وهو يقطع الأميال نحو المدينة المنورة كي يعلن إسلامه بحضرة الرسول ﷺ، ذلك أن الهاجس الوحيد الذي كان يساوره ـ لا شك ـ هو النجاة من الموت فمن حقه إذن أن يكون معنى القلب مكبله خوفا على أنفاسه من أن تصعد ولا تنزل فلما بلغه أن رسول الله ﷺ أهدر دمه ، لجأ إلى مزينة لتجيره من خطر الموت الذي يتهدّده ، فأبت عليه . وانتشر الخبر بأنه مقتول وتخلّى الناس عنه . وتخلّى عنه أخوه ، وشعر أنه وحيد . ، وأخذت الحياة تبتعد عنه شيئاً فشيئاً . وكان قلبه ما زال معلقاً بها ، «متيّماً بها» ، أضناه حبّها فهو «متبول» ، كأنه لا يستطيع انفكاكاً عنها «لم يُفدَ مكبول»! وهذه هي النقطة الثانية المهمة في نفسية كعب ، حين أخذ يدرك أن هذه الحياة التي كان ينعم بها أخذت تغيب عنه مع ما كان يحمل لها من جمال في نفسه ، فكأنها الغادة الجميلة «الهيفاء «التي يزهو جمالها ويبدو في صوتها «أغنّ» ، وفي طرفها : «غضيض الطرف مكحول» ، وفي قوامها مقبلة ومدبرة : «هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة» ، وفي اعتدال طولها «لا يشتكي قصر منها ولا طول» وفي

ثغرها وأسنانها : « تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت ... . » هذا الجمال كلّه الذي كان يحسّه في حياته الدنيا لم يسعفه وهو في حالة الخطر ، فنقضت حياته في الجاهلية عهدها ، وكانت عنده أثيرة لولا نقضها لعهدها وتخليها عنه . ولكنها هي الحياة التي أخذ يكتشف مساوئها ومساوئ دنياها . إنها الدنيا المملوءة بالخيانة والغدر وعدم الوفاء ، مما يرمي بالفواجع والكذب والإخلاف : « فجع وولع وإخلاف وتبديل » ، حتى كأن هذه الصفات طبيعة ممزوجة بدمها لا تستطيع الخلاص منها : « لكنّها خُلّة قد سيط من دمها »! ولقد ألمح الشاعر نفسه إلى تفسير الأسطورة (سعاد) بالواقع (الحياة) في مواضع من قصيدته تلميحا يكاد يقترب من التصريح ، فرمزية سعاد للحياة يعضدها ـ فضلا عما سبق ـ أمور هي :

ـ إن لفظة (سعاد) باشتقاقها من الأصل (سعد) ومجيئها على روي لفظ (حياة) لتوحي إلى ما ذهبنا إليه ، إذ لم يعهد شاعرنا متيما بسعاد في غير بردته هذه ثم أنه لم يكن شغوفا باسمها فيكثر من ترداده مرارا في تقديمه الغزلي للبردة كما فعل أقرانه الهائمون بخليلاتهم ، ولذا يمكن القول : إن سعاد هي الحياة السعيدة التي كان ينعم بها الشاعر ، بغض النظر عن تقييدها بالمعتقد الفاسد (الجاهلية) أو مريديه (المشركين) ذلك إن كلمة « سعاد » تعبّر عن حبّه الذي كان يملأ قلبه ، حبّه الذي إن فرط به ماتت نفسه واضمحل وجوده .

ـ إنَّ الشكوى الطاغية في القسم الأول من القصيدة ـ الغزل ـ تكتنفها دلالات التعارض في المحبوبة بين ظاهرها وباطنها من ناحية ، ومن تعارض بين المحبوبة والشاعر من ناحية أخرى ، فالمحبوبة على الرغم من بهائها الظاهري الخارجي فإنها تتميز بصفات داخلية سيئة ، ثم إن اسم المحبوبة سعاد « يوحي بهذه التعارض أيضاً ، فهي لم تسعد الشاعر بل قد أسقمته وأدخلت الحزن إلى قلبه حقبة من الزمن . وهذا هو حال الحياة عموما مليئة بالتقلبات والمتناقضات لا تستقر مع امرئ على حال بعينها وكذا حال الناس مع الحياة واللبيب منهم من لم تغره الدنيا بغرورها .

ـ إن نظرة فاحصة في المقدمة الغزلية التي جاءت من (14) بيتا تبين أنها مليئة بالحركة والتقلب والاضطراب كشأن الحياة ، فالألفاظ المهيمنة على نص المقدمة طغى عليها الطابع الحركي عموما ، ذلك أنها أما ألفاظ دالة على الزمن الدائر مثل (إثرها ، غداة البين ، أضحى ، مواعيد ،

مواعيدها ، أبد ، طوال الدهر ، ما منت وما وعدت ، الأماني والأحلام ، أمست .) أو أفعال دالة على الحركة السريعة في معناها فضلا عن بنائها إذا ما علمنا أن الأفعال عموما تفيد الدلالة على الحركة والتغيير من حال إلى حال . مثل (بانت ، لم يجز ، تجلو عوارض ، ابتسمت ، رحلوا ، شجت ، يعجلن ، تجلو الرياح ، ما تدوم ، قد سيط ، زعمت ، وما تمسك ، كما تمسك ، لا يغرنك ، لو أنها صدقت ، أرجو وآمل .) أو أسماء مفاعيل قفى بها أبيات المقدمة بشكل ينبئ عن سر حشرها بهذه الكثرة وهي (متبول ، مكبول ، مكحول ، معلول ، مشمول ، مقبول) وربما رام الشاعر من ذلك تصوير حاله مع الحياة التي أدبرت عنه أو تكاد فعمد إلى هذا البناء ينتقي من ألفاظه الدالة على من وقع عليه الفعل وأضحى لا حيلة له أمام بطش الفاعل (الحياة) لكن الشاعر يأبى الاستسلام والخضوع على الرغم من قسوة الزمن به وتكالب الرزايا عليه وفقده الأمان والطمأنينة .

فالمهيمنات اللفظية على نص المقدمة ـ إذن ـ تكشف عن أن الشاعر كان في دوامة مع الحياة يتحرك ذات اليمين وذات الشمال حركة خاطفة بحثا عن سبل النجاة وهروبا من الموت ، لقد كان ضائعا تائها هائما في البوادي غير مستقر في مقام بعد أن فقد الأمان فلا غرو من أن يظهر أثر ذلك الهيم في الأرض في مقدمة ما قال ليصور بخياله الواسع وأفق نظره البعيد حاله تلك ولما وصل في قوله إلى لب الموضوع (المدح والاعتذار) جرى شعره هادئا متسلسلا منتظما من ألفاظ راكدة ساكنة في مدلولها غايتها الإبلاغ وإلقاء الحجة فحسب فصور بشعره هدوء باله كيف لا وهو بحضرة الرسول العظيم الذي أنزل رحمة للعالمين . وقد بلغ الذروة في الهدوء والاتزان الروحي حين قال :

52 ـ إنّ الرّسول لسَيْفٌ يستَضَاء بِهِ مهَنّدٌ مِن سيوفِ اللهِ مَسْلول

ـ إن الشاعر قد خلع على متيمته سعاد الصفات التي وردت مقصورة على لفظ الحياة في التنزيل العزيز من مثل (لعب ، متاع الغرور ، زينة ، لهو ، متاع قليل) . فالشاعر لما قال :

2 ـ وما سعاد غداَة البَيْنِ إذ رَحلوا إلا أغنّ غضيض الطرْفِ مَكحول

4 ـ تَجْلو عَوَارِضَ ذي ظلمٍ إذا ابتَسَمَتْ كأنّه منْهَلٌ بالرّاحِ مَعلول

كان قد اقترب كثيرا في هذه الرمزية من قوله تعالى (اعلموا أنما

الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة) ، علما أن البيت الأول يروى : (وما سعاد غداة البين إذ برزت) . وهذه الرواية تجعل الأحداث جميعها تدور في فلك سعاد وحدها وهو أمر لا يتحقق مع (رحلوا) الذي قد يصرف تفسير سعاد بالحياة عن مقصده .

ولما قال كعب :

7 ـ أكـرمْ بها خلةً لـو أنّهَا صَدَقَتْ مَوعودَهـا أو لو انّ النّصْحَ مَقبول
8 ـ لكنّهَـا خلةٌ قد سِيط مِن دَمِهَا فجْـعٌ وَوَلَـعٌ وإخلافٌ وتَبديـل
9 ـ فما تدوم على حـال تكون بِهـا كمـا تَلوّن في أثـوابِهـاالغـول

كان قد اقترب من قوله تعالى : (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) . فالشاعر ساق نسق الألفاظ في قوله (فجع وولع وإخلاف وتبديل) كما سيقت في قوله تعالى (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة) . وواضح هنا أنّ هذا الوصف لسعاد أقرب لوصف حال الحياة الدنيا وما تحمل للناس من مصائب (فجعٌ) وغدر وكذب (ولعٌ) ، وإخلاف وتضليل . وكأنّه بلغه وصف القرآن الكريم للدنيا : ﴿ياأيّها النّاس اتّقوا ربّكم واخشوا يوماً لّا يجزى والدٌ عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً إنّ وعد اللّه حقٌ فلا تغرنّكم الحياة الدنيا ولا يغرنّكم باللّه الغرور﴾ [لقمان : 33]

فكأنّه سمع هذه الآية وأمثالها في كتاب الله ، فقال : « فلا يغرنّك ما منّت وما وعدت» إنّ هذا الوصف أقرب ما يكون للحياة الدنيا وفتنتها وغرورها ، وما فيها من أمانيّ وأحلام لا تزيد عن غرور وتضليل .

إن مرحلة الانتقال من الحياة الجاهلية إلى حياة الإسلام كانت بالغة القصر إذا ما قيست بالتحول الهائل الذي طرأ على الحياة العربية بعد الفتح الإسلامي . ويلاحظ الدارس أن الشعراء منذ السنوات الأولى للإسلام بدءوا يتأثرون تأثيرا واضحا بالمعاني الدينية الجديدة وبالأسلوب القرآني مما يؤكد أن مواجهة الشاعر المخضرم للمجتمع الجديد كانت مواجهة سريعة فرضت عليه التكيف السريع [6] ، كما يلحظ عند كعب بن زهير إذ نجده في مديحه للنبي والمهاجرين يرق ويلين ويستخدم ألفاظا وعبارات ومعاني إسلامية جديدة .

الناقة أم الذات

إن مبالغة الشاعر في وصف الناقة ـ مع أهميتها في حياة البدوي ـ لا

يمكن أن يرقى في أي حال من الأحوال إلى مبالغته في وصف الحبيبة (سعاد / الحياة) التي لم تنل مما قال نصف ما قال في الناقة ، فقد خصص كعب (22) بيتا من بردته للناقة وهذا الأمر يدعو الباحث إلى التأمل الدقيق قبل أن يطلق الحكم معتمدا على ظاهر القول ، فما قاله الشاعر في الناقة يفوق حتى ما قاله في الغرض الأساسي من قصيدته ـ الاعتذار ثم مدح الرسول ومن معه . فبعد أن أعلن عن تمسكه بالحياة قرر خوض غمار الرحلة المضنية المؤدية إلى الظفر بالحياة والنجاة والأمان والنعيم الجديد ، وأشار إلى أن السبيل إلى ذلك هو (في المدينة المنورة) ، في مكانٍ لا يبلغه إلا الإبل القوية السريعة ، وأخذ يصف هذه الإبل وصفاً دقيقاً لِيُعبّر عن عظيم الرحلة التي يريدها وأهميتها وخطورتها ، فلا تصلح لها الإبل الضعيفة . ومِن خلال هذا الوصف الدقيق الذي بلغ به درجة عالية من الفنّ والجمال ، يعبّر كعب عن شدّة شوقه للقيا الرسول ﷺ ، وذلك بوصف السرعة الهائلة التي تمضي بها الإبل في رحلتها إلى النبوة الخاتمة . إنه تصوير يحمل القوة والحركة وجمال الصورة وتناسق الألفاظ وقوة السبك والتركيب وجمال اللحن . فالإبل تُسرع (تخدي) على قوائم خفاف (يسرات) كأنّها الرماح الصلبة (ذوابل) لا تكاد تمسُّ الأرض من شدّة سرعتها ، وكأنّها تمسُّ الأرض مسّاً خفيفاً جدّا ، وكأن أعصاب قوائمها (العُجايات) وهي رماح سمر لقوتها وصلابتها ، وإذا مسّت الحصى فرّقته بقوتها ورجوعهما من شدّة السرعة ، وقد عرقت لا من التعب لأنها قوية ، بل من شدّة الحر الذي بلغ حدّاً انتشر السّراب (العساقيل) على الجبال الصغيرة (القور) ، فكأنّها تلفّعت به أو التحفت به ، كأنّ سرعة تقلّب ذراعيها مع هذا الحَرّ ومع هذه السرعة ، حين اشتدّ النهار بحرّه سرعة ذراعي المرأة الطويلة (ذراعا عيطل) المتوسطة السنّ (نصَف) في لطمها على خدّيها لفقدها ولدها ، يجاوبها نساء لا يعيش لهنّ أولاد . فالنُّكد جمع نكداء وهي التي لا يعيش لها ولد . والمثاكيل جمع مثكال وهي كثيرة الثكل ، المرأة النوّاحة ، مسترخية العضدين (رخوة الضبعين) ، فقدت صوابها (معقول) لمّا بلّغها الناعون موت ولدها البكر ، فاشتدّ لطمها لخدّيها . ويسير الوشاة حول « سعاد »(جنابيها) ليمنعوا من نقل صاحبها إلى بر الأمان ، وليثبّطوا عزيمة كعب بأنه مقتول . فلا غرو ـ بعد هذا ـ من أن تكون الناقة في البردة هي ذات الشاعر ولا نرضى بغير هذا المدلول في تفسير هذه الرمزية يعضد ذلك أمور تلحظ في قول الشاعر منها .

ـ ميله العجيب إلى صبغ الناقة بصبغة الرجل الشجاع الأصيل الكريم النجيب الشديد ، وإسناده أفعال العقلاء إليها ، فقد خلع الشاعر صفات على الناقة يجعل منها كائناً أسطورياً وذلك من خلال التشبيهات العديدة التي تتوالى وتتعاقب بطريقة فريدة ، وكأنَّ الحديث عن الناقة وقوتها إنما هو حديث عن صاحبها وراكبها، ويوحي في الوقت نفسه أنَّ الناقة تمثل وسيلة وحيدة للانتقال بصاحبها من حالة إلى أخرى ، بمعنى أنَّ الشاعر يجسد خصائص « القوة والسرعة والقدرة على التحمل « في الناقة وصاحبها ، كما يؤكد دورها في الانتقال من موقف وطور إلى آخر . ولا شك أن مبالغة الشاعر في التعبير عن خصائص الناقة الجسدية والذاتية من ناحية والمناخ الذي تتحرك فيه من ناحية ثانية ، يوحي إلى أن المقصود هو ذات الشاعر لا الناقة نفسها ، فكأنَّ (الناقة/ الذات) تمثل نقيضاً للطبيعة فهي كائن أسطوري جبار منتصر ، ففي الأبيات : 15 إلى 23تحدث عن صفات الناقة الجسدية ، ثم ينتقل في البيت 27 إلى تقديم صورة عن قسوة الحر في الصحراء ، وتبدو (الناقة /الذات) قاهرة للطبيعة بصبرها وصلابتها وإصرارها .

ـ إن الشاعر بعد تطويله في الفخر غير المباشر من خلال الرمز ـ الناقة ـ وبعد بث شكواه وحرقته من الوشاة والخلان الذين يرونه هالكا لا محالة عمد في نهاية الأمر وقبل انتقاله إلى الغرض الرئيس إلى التصريح بشخصه حين قال :

37 ـ فقلت خَلوا سَبيلي لا أبا لكم فكلّ ما قدّرَ الرّحمن مَفعول

وهنا أصبح الطريق له وليس للناقة التي انقطع نفسه وهو يصف محاسنها فكان حريا به أن يطلب إخلاء الطريق لها لا سيما أن هذا الفعل أكثر ملاءمة لها من أفعال أخرى أسندها إلى الناقة وهي مختصة بالعقلاء . فالشاعر أدرك بعد هذا الحصار من الطبيعة القاسية مرة ، ومن الوشاة مرة ثانية ، ومن الخلان مرة ثالثة ، أنَّ نهايته اقتربت ، وإن الحياة توشك أن تفارقه وعندها لا بد من التوجه إلى قوة تتجاوز هذه القوى جميعا ، وهي قوة قدرية خاضعة للإرادة الإلهية ، ويقترن بالتقدير الإلهي الحديث عن مصير الإنسان « الموت» ، فالشاعر لم يعد يملك الخيارات الكثيرة وليس أمامه إلا أحد أمرين : إما اليأس المطلق والاستسلام التام للموت الذي يحيط به ، واما التسليم للذات الإلهية وقدريتها ، وقد اختار الشاعر الأمر

الثاني بعد أن وجده أكثر رجحاناً ، لأنه ينسجم مع الفكرة الدينية ، ولأنه يزرع في نفس الشاعر الثقة والأمل الجديد بالظفر بالحياة البائنة ، ولأنه يمهد للاعتذار والمديح الرسول الكريم الذي توجه الشاعر إليه .

وفي ضوء هذا فإنَّ ما كان مصدراً للموت يصبح مصدراً للحياة ، أي أنَّ الرسول حين أهدر دم الشاعر أصبح سبباً لموت الشاعر ، وهو نفسه يصبح سبباً لإنقاذه ، ولا يتم ذلك إلا من خلال الاعتذار للرسول والإيمان به وبرسالته ، فالشاعر في هذا ينتقل إلى مرحلة الامتلاء الحقيقي التي تمثل التواصل مع الرسول والرسالة وجماعة المسلمين والتوحد بهم ومعهم ، ومن ثم ينتصر الشاعر على ذاته التي فقدت التوافق الاجتماعي وعلى المعاناة التي واكبته حقبة بفعل شعوره بفقدان « سعاد / الحياة » فضلاً عن تجاوزه حالة التأزم والقلق التي تتجلى في رحلته نحو المجهول .

ـ إن الشاعر يبدو ميالا وهو يصف الناقة إلى الفخر المبطن والزهو بالنفس وشحذ الهمة في وقت اصطراعه مع الموت والتشبث بتلابيب الحياة . فقد كان موقنا أن حياته في خطر وكان في خلده أنه لن يفلت من العقاب الدنيوي بعد أن أمر الرسول (ص) بهدر دمه وعلى الرغم من نأي الحياة (سعاد) عنه لم يركن إلى التقاعس واليأس والقعود عن اللحاق بها فركن إلى نفسه يشحذ همتها ويزرع الأمل فيها وقد عهدها نفسا أبية شجاعة لا تأبى الضيم وانتظار المنية ، على وفق ما يلحظ في البيتين (14 ، 15)

ـ إن الشاعر قد آلمه ما يلقى من أقوال الوشاة والمغرضين الذين يتربصون به الدوائر ولكنه مضى في شمم وإباء مواصلا الرحلة المباركة ونجد هذا المعنى مقرونا بالناقة التي يقول فيها :

22 ـ يَمشِي القُرَادُ عليها ثُمَّ يُزْلِقُهُ　　مِنها لِبَانٌ وأَقْرَابٌ زَهَالِيلُ

وفي يقيني أن حمل معنى البيت على ظاهره فيه من السذاجة والغباء ما لا يليق بالشاعر . فأي حشرة حقيرة هذه التي تستأهل أن تذكر في ذلك المقام المبجل ، وأي ناقة هذه التي تزيح عن نفسها القراد بصدرها وخواصرها . ؟ لا شك إنهم الوشاة الذين تمسكوا بتلابيب الشاعر فأكلوا لحمه حيا فلم يكن أمام الشاعر من بد في التصريح بهم والشكوى من مكرهم وكيدهم كما في البيتين (35 ، 42) . فقد أحاط الوشاة بالشاعر وسعوا إلى تثبيط عزيمته ، ويتجلى ذلك في تأكيدهم المتيقن بأنَّ الشاعر

مقتول ويتأكد ذلك اليقين بالتعبير الأسلوبي ، الذي جاء في سياق جملة على لسان الوشاة بالتوكيد بـ (إن واللام الداخلية على الخبر) : انك يا ابن أبس سلمى لمقتول .

ـ تراكم ألفاظ الطبيعة الحية في البردة قصد تشبية العقلاء من مثل (الفيل ، الجمال الزهر ، ضرغامين ، سباع الجو ، ليوث الأ سد ، القراد ، أغن ، الغول) يوحي إلى أن الشاعر واجد في هذه الألفاظ التي تنبض بالحياة غاية المدح ، وقد ركن إليها في أعلى مراتب المدح عنده وهو مدح الرسول كما في البيت **(47)** . فلا غرو بعد هذا من أن يتخذ كعب الناقة رمزا عن ذاته ونفسه ، وإنما اتخذ الشاعر الناقة دون غيرها ترميزا لذاته لأن العلاقة بين (الذات /الشاعر) و(الرمز/الناقة) جلية بادية لكل من يمعن النظر في أحداث البردة ذلك أنَّ الشاعر يعيش حالة القلق والتأزم بسبب الرحلة المضنية في طبيعة صحراوية قاسية ، وبسبب مجتمع يتخلى عن الشاعر ولا يجيره لأن الحفاظ على شخص قد أهدر دمه أمر لا يطيقه الكثيرون فكانت الشكوى طاغية في البردة لأنَّ المحبوبة « سعاد / الحياة» تخلت عن الشاعر تماماً ، كما أنَّ قبيلته وخلانه قد تخلو عنه كذلك لأنَّ الرسول الكريم ﷺ قد أهدر دمه ، فضلاً عن قساوة الحياة وصعوبتها ، وقساوة الصحراء ومتاهاتها .

إن قرار الرحلة يعني أنَّ الشاعر ينتصر للحياة على الموت ويتخذ الناقة بوصفها رمزا عن ذاته الطامحة بالظفر بالحياة وسيلة لتحقيق هذه الغايات المتعددة ، فقد كان مثقلا بالقلق والخواء والركود ، ولكنه سرعان ما ينتقل فيه من الاستسلام إلى الحركة ومن اليأس إلى الأمل وقد تحقق له ما أراد وعاش القابل من أيامه في كنف الإسلام عزيزا أبيا وصحابيا جليلا وشاعرا ذا قضية مقدسة .

وما كان رسول الله ﷺ ليبدي إعجابه الشديد فيخلع بردته على كعب من أجل أبيات من النسيب والغزل بل إن الفكرة الرائعة التي تعرضها القصيدة في ألفاظ قوية وتعبيرات غنيّة ووقع فنّي مؤثّر ، هي التي أثارت إعجاب رسول الله ﷺ . إنها تمثّل رحلته من الفناء إلى الخلود ومن الظلمات إلى النور ، وقد كان كعب صلبا قويا صابرا فيها لم يستسلم لليأس وهي رحلة تستحقّ كل هذا الجهد والعناء والبذل والصبر والمعاناة ولا يعقل أن يكون شاغله في هذه المعاناة النفسية حبّ فتاة حقيقية أو خيالية .

الهوامش

(1) ـ ينظر في ترجمة الشاعر : سيرة ابن هشام : ج2 ، ص (501 ـ 515) . وشرح أبي البركات ابن الأنباري لقصيدة كعب بن زهير ، تح د . محمود حسن زيني ط1 1400هـ ـ 1980م ، ص (83 ـ 90) . وشرح جمال الدين بن محمد الأنصاري لقصيدة كعب ، تح د . محمود حسن أبو ناجي ط3 ، 1404هـ ـ 1984م ، ص (32 ـ 37) .

(2) ـ دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي ، د . محمد عبد القادر أحمد ، ط1 ، مكتبة النهضة المصرية شارع عدلي القاهرة ، ص138 ـ 141 .

(3) المدائح النبوية بين المعتدلين والغلاة ، ط1 1406هـ ـ 1986م ، ص : 19 ـ 20 .

(4) آراء في دراسة النص ، المطلبي ، (بحث) منشور في مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، ع17 ، 2000ف ، ص340 .

(5) وقفة ورأي مع قصيدة كعب بن زهير /البردة ، د . عدنان علي رضا ، (بحث) دار النحوي للنشر .

(6) في الشعر الإسلامي والأموي ، عبد القادر القط ، 14 ـ 15 .

بردة كعب

1/ بانَتْ سعاد فقلبِي اليومَ مَتبول   متَيَّمٌ إثرَها لم يفدَ مَكبول
2/ وما سعاد غداة البَيْنِ إذ رحلوا   إلا أغنّ غضيض الطرْفِ مَكحول
3/ هيفاء مقبلة عَجْزاَء مدبِرَةَ   لا يشتكى قِصَرٌ مِنها ولا طول
4/ تَجلو عَوارِضَ ذي ظلمٍ إذا ابتَسَمَتْ   كأنّه منهَلٌ بالرَاحِ مَعلول
5/ شجّتْ بِذِي شَبمِ مِن ماءِ مَعْنِيَةٍ   صافٍ بأبْطحَ أضْحى وَهْوَ مَشمول
6/ تنفِي الريَاح القذَى عنه وافرطه   مِن صَوبِ ساريةٍ بِيضٌ يَعاليل
7/ أكرِم بها خلة لو أنهَا صَدَقت   مَواعيدَها أو لو انّ النّصحَ مقبول
8/ لكنهَا خلة قد سِيط مِن دَمِهَا   فجَعٌ وَوَلَعٌ وإخلافٌ وتبديل
9/ فما تدوم على حال تكون بِها   كما تَلون في أثوابها الغول
10/ ولا تَمَسّك بالعَهدِ الّذي زَعَمَت   إلا كما يمسِك الماءَ الغَرابيل
11/ فلا يَغرّنّك ما مَنّتْ وَما وَعَدَتْ   إنّ الأمانِيَ والأحلامَ تَضليل
12/ كانَت مَواعيد عرقوبٍ لها مَثَلا   وما مَواعيدها إلا الأباطيل
13/ ارجو وامل ان تَدنو مودتها   وما اخال لدينا مِنكِ تنويل
14/ امسَت سعاد بارض لا يبلغها   إلا العِتاق النجيبات المراسيل
15/ ولن يبلغهَا إلا غُذافِرة   لها على الأين اِرقالٌ وتبغيل
16/ مِن كل نَضاخةِ الذفرى إذا عَرقت   عرضَتها طامِس الأعلامِ مَجهول
17/ تَرمِي الغيوبَ بِعَيْنَي مفردٍ لهِق   إذا تَوقّدتِ الحزّاز والمِيل
18/ ضَخْمٌ مقلدها فعْمٌ مقيّدها   في خَلقِها عَن بَناتِ الفحْلِ تَفضِيل
19/ علباء وجناء علكومَ مذكرة   في دفّها سَعَة قدامَها مِيل
20/ وجِلدها مِن اطومٍ لا يؤيّسه   طلحٌ بضاحِيَةِ المتنَين مَهزول
21 حَرفٌ أخوها أبوها مِن مهجنةٍ   وعَمّها خالها قوداء شِمليل
22/ يَمشِي القُراد عليها ثم يزلِقه   مِنها لِبانٌ وأقرابٌ زهاليل
23/ عَيرانة قذِفت باللحم عن عرض   مِرفقها عن بَناتِ الزّورِ مفتول
24/ كأنما فاتَ عَينَيها ومَذبَحها   مِنْ خطمِها ومِنَ اللحيَيْنِ بِرطيل
25/ تمرّ مِثلَ عَسيبِ النّخلِ ذا خصَل   في غارزٍ لم تخوّنه الأحاليل
26/ قنّواء في حرّتَيها للبَصِير بِها   عتَقٌ مبينٌ وفي الخدّينِ تسهيل

27/ تخدِي على بَسَراتٍ وَهِيَ لاحِقة ذَوَابِلٌ مَسّهنَ الأرضَ تَحليل
28/ سمر العَجَاياتِ يَتركنَ الحصَى زِيَمَا لم يَقِهنَ رؤوسَ الأكمِ تَنعِيل
29/ كأنّ أوبَ ذِراعيها إذا عَرِقت وقد تَلفعَ بالكورِ العَساقِيل
30/ يَومَا يَظلّ بِهِ الحِربَاء مصطَخِداً كأنّ ضَاحِيَه بالشمسِ مَمْلول
31/ وقالَ للقومِ حَادِيهم وَقَدْ جَعَلت ورْقَ الجنَادِبِ يَركضْنَ الحصَى قِيلوا
32/ شَد النهَار ذِراعا عيطلٍ نَصِفٍ قامَت فجَاوبَهَا نكدٌ مَثاكِيل
33/ نَواحة رِخوَة الضَبعَينِ لَيس لها لما نَعَى بِكرَهَا الناعونَ مَعقول
34/ تَفري اَللبَانَ بِكفيهَا ومَدرَعها مشَققٌ عَن تَراقِيها رَعَابِيل
35/ تَسعَى الوشَاة جَنَابَيهَا وقولهم اِنك يا ابنَ أبي سلمَى لمَقتول
36/ وقالَ كلّ خَلِيلٍ كنتُ آمله لا أَلهِيَنَك إني عنك مَشغول
37/ فقلت خَلوا سَبِيلِيَ لا أبا لكم فكلّ ما قدّرَ الرّحمن مَفعول
38/ كلّ ابنِ أنثى وإن طالت سَلامَته يوما على آلةٍ حَدباءَ مَحمول
39/ أنبِئت أَن رسولَ اللهِ أوعَدنِي والعَفو عندَ رَسول اللهِ مَأمول
40/ وقد أتَيت رَسولَ اللهِ معتَذِراَ والعذر عندَ رَسولَ اللهِ مَقبّول
41/ مَهْلا هَدَاك الذي أَعطَاك نَافِلة الـ قرآن فيها مَوَاعِيظ وتَفصِيل
42/ لا تَأخذَنّي بأقوال الوشَاةِ ولَم أذنِبَ وقد كثرَت فِيّ الأقاويل
43/ لقد أقوم مَقامَاَ لو يَقوم بِهِ أرى وأسمَع ما لم يَسمَعِ الَفِيل
44/ لظلّ يرّعد إلا أنّ يكونَ له مِنَ الرّسول بإذن الله تَنْويل
45/ حَتّى وَضَعت يَمَيني لا أنازِعّه في كفَ ذِي نَغمَاتٍ قِيلَه اَلقِيل
46/ لذَاك أهيَب عِندي إذ أكلمه وقِيلَ اِنك مَنسوبٌ ومَسؤول
47/ مِن خادِرٍ مِن ليوثِ الاسدِ مَسكنه مِن بَطن عَثَرَ غِيلٌ دونَه غِيل
48/ يَغدو فَيلحِم ضِرغامَينِ عَيْشهمَا لحَمٌ مِنَ القومِ مَعفورٌ خَرَادِيل
49/ إذا يساوِر قِرنَاَ لا يَحِلّ له أنَ يَتَرك القِرنَ إلا وَهَوَ مَغلول
50/ مِنه تَظلّ سِبَاع الجوَ ضَامِرَةَ ولا تَمَشّى بِوادِيهِ الأَرَاجِيل
51/ ولا يَزَال بِوادِيهِ أخو ثِقةٍ مطرّحَ البَزَ والدّرسَان مأكول
52/ إن الرسول لسَيفٌ يستَضاء بِهِ مهنَدٌ مِن سيوفِ اللهِ مَسلول
53/ في فِتيَةٍ مِن قرَيشٍ قالَ قائِلهم بِبَطنِ مكة لما أسلموا زولوا
54/ زالوا فما زالَ أنكاسٌ ولا كشفٌ عِندَ اللقاءِ ولا مِيلٌ مَعَازيل
55/ شمّ العَرانِينِ أبطالٌ لبوسهم مِن نَسجِ داودَ فِي الهيجا سَرابِيل
56/ بِيضٌ سَوابِغ قَد شكتَ لهَا حَلَقٌ كأنّها حَلَق القفعاءِ مَجدول
57/ يَمشونَ مَشيَ الجِمَال الزّهرِ يَعصِمهم ضَرّبٌ إذا عَرّدَ السّود التّنابِيل
58/ لا يَفرَحونَ إذا نالتَ رِمَاحهم قوّمَاَ وليسوا مَجَازيعَاَ إذا نِيلوا
59/ لا يَقع الطعن إلا في نَحورِهِم وما لهم عن حِيَاضِ الموتِ تَهلِيل